الأهرام

المصدر : الرأى العـــــام

التاريخ : ١١ ربيع الأول ١٤٠٠

لماذا يخشى الاتحاد السوفياتي المسلمين

اعتبر الكثيرون في الغرب الغزو السوفياتي لافغانستان على انه تعبير عن الضعف والتوسع . وعلى اية حال ، فان اي تشبيه لهذا العمل على انه غرور هتلري انما هو تشبيه تجانبه الحقيقة ، ذلك ان اهتمام القادة السوفيات بافغانستان — وايران — هو لاسباب دفاعية اكثر منها هجومية . وهذا ليس معناه السكوت على انشطتهم او التغاضي عن الاخطار المترتبة على تصرفاتهم . وانما من المهم ان نتذكر ان الاتحاد السوفياتي في معظمه امبراطورية استعمارية اوروبية تواجه خطرا حادا ومتزايدا على بقائها من قبل سكانها الآسيويين . وقد جاءت مناورته الاخيرة بسبب القلق اكثر منها بسبب التباهي .

ومال المراقبون الغربيون الى اعتبار الوجود السوفياتي في آسيا الوسطى على انه لمصلحة سكانها المحليين . ولكن الحقيقة ان المرحلة الستالينية كانت كارثة عليهم ، فقد تم اضطهادهم في دينهم ثم فرضت عليهم نخبة غير ممثلة من « الشيوعيين الوطنيين » ما لبثت ان صفيت وجيء بدلا منها بزعامات اقل تمثيلا واكثر خضوعا للطغاة في موسكو . وكثيرا ما طبقت النظم الزراعية الجماعية في المناطق الآسيوية من الاتحاد السوفياتي بوحشية متناهية . فقد انخفض العدد الاجمالي للقوزاق المعروفين بكثرة تناسلهم مثلا انخفاضا كبيرا فيما بين احصائيتي ١٩٢٦ و ١٩٣٩ . وخلال الحرب العالمية الثانية انضم الكثيرون من سكان آسيا الوسطى الى وحدات نظمها النازيون لمحاربة « اشقائهم الكبار » الروس .

ولكن على الجانب الايجابي ، تمت عمليات تنمية اقتصادية واسعة وجرى تحول تثقيفي ملموس . وفي نفس الوقت ادى التقدم في مجال الصحة العامة والخدمات الصحية الى زيادة معدل الولادة .

فمنذ ١٩٥٠ طرأت زيادات على المجموعات الاسلامية في الاتحاد السوفياتي بلغت نسبتها حوالي ٣٪ سنويا — اي بمعدل يمكن ان يضاعف عدد السكان في جيل . وبرغم انخفاض نسبة التوالد في بعض المناطق فانها ما زالت مرتفعة جدا . وعلى اية حال فان عدد الشبان بين المواطنين المسلمين يضمن التفوق على معدلات التكاثر بين الفئات الاوروبية . ولعل هذا الخلل في الميزان هو الذي يهدد اكثر من اي شيء اخر الاستقرار في الاتحاد السوفياتي . ومع انه لم تنشر اية احصاءات رسمية بعد فان عدد السكان السوفيات في عام ١٩٧٠ كان ٢٤٩ مليونا منهم ٤٨ر٤٠ مليونا من الاوكرانيين و ٢ر٩ مليونا من سكان روسيا البيضاء . وتشكل الفئات السلافية في مجموعها ٦ر٧٤ بالمئة من عدد السكان . ويتركز السكان المسلمون في آسيا الوسطى السوفياتية ومنطقة القوقاز وقد بلغ عددهم حوالي ٣٥ مليونا اي بزيادة اكثر من ٤٠٪ عما كانوا عليه في عام ١٩٥٩ . واذا ما استمرت الاتجاهات الراهنة حتى عام ٢٠٠٠ فان عدد الروس قد يصل الى ما بين ١٥٠ و

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

١٥٥ مليونا. ويصل عدد المسلمين الى ما بين ٦٥ و ٧٠ مليونا وتتحول نسبتهم من ٥ر١٤٪ من عدد السكان الى ما بين ٢٠ و ٢٥٠٪ في عام ٢٠٠٠ .

هذه بعض المشاكل التي تقلق السياسيين السوفيات وبخاصة من الصفوف المتوسطة . فما هي الحلول الممكنة التي يتطلعون اليها ؟ منذ عدة سنوات وكثير من المراقبين الديموغرافيين السوفيات يحثون حكومتهم علنا على ضرورة انتهاج سياسة سكانية متمايزة تهدف الى تعزيز معدلات التوالد لدى السلاف واضعافها لدى المسلمين . وقد نجحت بعض دول اوروبا الشرقية باساليب شتى في زيادة معدلات تكاثرها . ولكن الآثار وإن كانت ملموسة ، تعتبر معتدلة او اكثر من معتدلة بالنسبة للمشكلة ذاتها في الاتحاد السوفياتي . وهي مشكلة كان يجب معالجتها قبل عشرين عاما ان لم يكن اكثر .

تبد الزعامة السوفياتية في الوقت الحاضر احرص على محاولة صهر الاقليات القومية ونشر اللغة الروسية كلغة ثانية او حتى اولى ان امكن بينهم . وتشير نتائج الاحصاءات الى شيء من النجاح في هذا الميدان ولكن بصورة اساسية بين السلاف وغيرهم من الشعوب الاوروبية . ولكن وجه المفارقة في هذا الموضوع هو ان نشر اللغة الروسية قد يساعد على تسهيل نماء المشاعر التحررية لدى الشعوب المسلمة . ذلك ان الروس تمشيا مع سجل التحرر الذي يدعونه قد يرغمون الى تعزيز هذه المشاعر عن طريق اتخاذ بعض الاجراءات الشعبية الرمزية . ولكن عندما يرى الناس انفسهم في مركز المستعمر فلن يكون من السهل ارضاؤهم . فاذا كان الصهر وتعبيرات الاخوة لن يجديا نفعا فلا بد من وضع نوع من الستراتيجية لقيام تنمية مستقلة ولكن متساوية في المستقبل . ثمة عنصر كبير من التفرقة العنصرية غير الرسمية ولكن هناك علامات ايضا على امكان تحويلها الى سياسة ايجابية . وامكانية اخرى تكمن في منح مزيد من الحكم الذاتي لجمهوريات آسيا الوسطى في ادارة شؤونها المحلية . وهذا الامر لا تتقبله الحكومات السوفياتية بسهولة . فالمركزية الشيوعية التقليدية القوية تقف ضده وقد يؤدي الى وجود اسبقية خطيرة للغاية . واخيرا هناك الاستراتيجية الاكثر تطرفا والتي تتمثل في الانسحاب الكلي (السياسي) وترك النخبة تدير شئون شعوبها على النمط المنغولي . فمثل هذا الحزام من الجمهوريات شبه المستقلة قد يشكل نموذجا رائعا للتنمية وفي نفس الوقت حزام امن بين روسيا الاوروبية والدول الاسلامية الاخرى مثل ايران وباكستان . ولكن هذه السياسة قد لا يكون من السهل تنفيذها طوعا . والدلائل الاخيرة تشير الى ان الروس قد يقيمون حزام الامن هذا خارج حدود الاتحاد السوفياتي . والحل المرجح هو ان يستمر القادة السوفيات بالمناداة بالاخوة والوحدة وبضرب العناصر غير الودية ، اي بالسياسة التي انتهجوها حتى الآن آملين في تحسن الاوضاع المستقبل .

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية